مركز التنوع لفض النزاعات
Diversity Conflict Resolution Center

نحو بناء هُويَّة وطنيَّة جامعة

ياسر الغرباوي*

* مؤسس مركز التنوع لفض النزاعات. وعضو سابق في لجنة العدالة الوطنية برئاسة الوزراء المصرية. مهتم بقضايا بناء السلام والمصالحة المجتمعية، مستشار مدني مستقل في قضايا مقاومة التحريض والكراهية. ساهم في أعمال وساطة في كل من مصر واليمن. له ثلاث إصدارات منشورة هي «حركات التغيير والحراك الجماهيري» (٢٠٠٧)، «الهروب من الحرب الأهلية – مصر نموذجا» (٢٠١٤)، «دارفور خَلْق جديد - تجربة حية في بناء السلام» (٢٠١٨). عمل باحثا بمركز الجزيرة للدراسات. يعمل حاليًا باحثًا بمركز الوجدان الحضاري بالدوحة، أنهى دراساته الجامعية في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٩٧، وحصل على دبلوم جغرافية المجتمعات الأسيوية من جامعة الزقازيق عام ٢٠١٢ بمصر.

تمهيد

عبور المجتمعات التي حسمت قضايا هويتها المجتمعية والحضارية نحو المستقبل يكون مرتفعًا مقارنة بالأمم التي ما زالت تتنكب طريقها في هذا المسار؛ إذ المجتمع الذي تتحارب مكوناته الثقافية والاجتماعية والدينية مع بعضها البعض من أجل أن يفرض كلٌّ منها هويته على المكون الآخر؛ سريعًا ما يسقط في أتون الشقاق والنزاع والحروب الأهلية الطاحنة التي لا تبقي ولا تذر، فقضايا مثل: التهميش الاجتماعي، والإقصاء، وعدم الاحترام المُتبادل بين شركاء الوطن، واستعلاء مجموعة ثقافية أو دينية على الأخرى، وتفشي الصور النمطية السالبة في الثقافة والتراث المحكي ضد الآخر الشريك في الوطن؛ يقود إلى احتقانات وشروخ اجتماعية، يمكننا جمعها تحت بند اضطراب وتوتر الهوية الجامعة للدولة والمجتمع[١].

فما المقصود بالهُوية الجامعة؟

الهوية الجامعة في تعريفها الإجرائي هي: الصورة التي يرغب مجتمع ما، أو مجموعة بشرية محددة أن تُعْرَف بها وسط الشعوب الأخرى[٢]، فعلى مستوى الهُويَّة الدينيَّة قد تجد مجتمعًا ما يُسعده أن تكون صورته أمام نفسه والعالم أنه مسلم، كما في معظم دول الخليج العربي، وقد تجد مجتمعًا آخر يفخر بهويته المسيحية مثل المجتمع اليوناني، وعلى المستوى الثقافي نجد مجتمعات تُعَرِّف هويتها الثقافية بأنها عربية أو أفريقية أو أسيوية، وهكذا في باقي المستويات الاجتماعية والسياسية، وقد نجد مجتمعا آخر يفخر بهويته المتنوعة والمتداخلة مثل المجتمع الكندي المُعاصر.

فالهوية الجامعة إذن ملف متعدد الأبعاد التاريخية والثقافية والدينية، يتشكَّل عبر حقب زمنية متراكبة، تؤثر فيه الوقائع والتحديات والطموحات؛ إذ يرى علماء الاجتماع أن الهوية هي «مجموع التصنيفات الانتمائية التي يرى بواسطتها الإنسان نفسه ومحيطه». وتضم هذه التصنيفات عادة كلًّا من اللغة والدين والعرق والجنس والأدب والموسيقا والعادات والتقاليد والوطن والتاريخ والطبقة والمهنة..... إلخ[٣].

تحرك المجتمعات نحو النهوض والتقدُّم لا بد له من مقاربة ثقافية واجتماعية تُعنى

---

(١) ياسر الغرباوي، حركات التغيير والحراك الجماهيري، دار مراصد للنشر، الإسكندرية، ٢٠١١.

(٢) محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال أفريقيا، أفريقيا الشرق، ٢٠١٤، الدار البيضاء.

(٣) نفس المرجع السابق.

بقضية الهوية الجامعة، والتي يجب أن يُشارك الكل في بنائها، دونما إقصاء أو تهميش، فالمكونات الاجتماعية في أي مجتمع تشعر بالخطر والخوف والتوتر عندما تُمَس هويتها الخاصة بها، سواء بالإهمال، أو الانتقاص.

وتتجلى أزمة بناء هوية وطنية جامعة بشكل حادٍّ في المجتمعات المتنوعة عرقيًّا ولغويًّا ودينيًّا ومذهبيًّا؛ إذ التحدِّي على مستوى إدارة الهوية يكون عاليًا؛ لأن المطلوب هو إبراز الهويات الفرعية بما لا يتعارض مع وجود هوية جامعة للمجتمع بشكل عام يفتخر بها الجميع، ففي المجتمع المصري كنموذج سنجد به المسلمين والمسيحيين مجموعاتٍ وطنية أصيلة، لكل منها هويته الفرعية، وهذا يعني أن ملف الهوية الجامعة في هذا البلد يتطلب جهدًا خلَّاقًا يُوفِّق بين كل هذه الهويات الدينية المُتباينة بما يُوفِّر الرضا لكل مكون، ولا يُنتج صدامًا أو توترًا في الحاضر والمستقبل.

وبناءً على ما تقدم، أعتقد أن عملية بناء هوية وطنية جامعة لمجتمع ما أو لدولة محددة تحتاج إلى التفاكر والاهتمام بالمحاور التالية:

أولًا: تحديد الهدف

يجب تحديد الهدف من فتح النقاش حول ملف الهوية الجامعة داخل المجتمع، بحيث يكون التناول رافعة للبناء والاستقرار وليس العكس، فهناك مجتمعات فتحت ملف بناء هويتها الجامعة من باب الاشتباك الأيديولوجي والديني بين المكونات المحلية، وهذا المدخل الضيق جعل عملية بناء الهوية وسيلةً للصراع، لا أداة لبناء الجسور بين مكونات المجتمع، مثلما حدث في الحالة المصرية بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، إذ شهدت مصر معارك صراعية كانت وسيلتها البارزة هي الخوف على الهوية المصرية؛ وأصبح كل طرف اجتماعي أو سياسي يعتقد أنه المؤتمن الوحيد على الهوية، والحارس لها من أن يمسها التغيير والتبديل! وأن الطرف الآخر (المنافس السياسي) مُهدِّد لها، ومع مرور الوقت تكشَّف للمراقبين أن الصراع بين الأطراف السياسية المصرية دوافعه الكبرى كانت سياسية تنافسية، لا علاقة لها بقضية الهوية، ولكن الغطاء لهذه المعارك استخدام الهوية كأداة للصراع[٤].

(٤) عزمي بشارة، هل من مسألة قبطية في مصر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٢.

ثانيًا: تعدُّد الأبعاد

من المهم اعتبار الهوية الجامعة مضمارًا ذا مسافات متعددة (ثقافية واجتماعية وسياسية) فمن الخطأ قصر الحديث فيها على البعد الديني فقط أو التاريخي؛ فكل المجالات الإنسانية والمجتمعية من تراث وتاريخ وجغرافيا واقتصاد وفنون وموسيقا داخلة في مدار الهوية ومؤثرة فيه إلى حد كبير[٥]، ففي المجتمع البوسني نجد أن التاريخ العثماني مكون رئيس في صناعة الهوية المحلية؛ فقد ظلت البوسنة قرونًا تحت راية الدولة العثمانية، وكذلك الدين الإسلامي باعتباره دين الأغلبية، وكذلك وجود البوسنة جغرافيًّا في أوربا كان وما زال مؤثّرًا في طبيعة الهوية البوسنية؛ وبالتالي عندما يُفتح النقاش حول الهوية في البوسنة، لا بد أن يفتح من الباب الواسع الذى يُرحب بفحص واعتبار كل السياقات، وعدم قصر مناقشة قضايا الهوية في الإطار الدستوري والقانوني فقط[٦].

ثالثًا: عدم إنتاج العجلة

يجب الاستفادة من الخبرة الإنسانية في تناول قضايا الهوية الجامعة، فهناك مدارس معرفية قد تشكلت عبر التجربة والوعي التاريخي تُعنى برصد ودراسة قضايا الهوية في المجتمع، وهي تنقسم إلى ثلاثة أُطر مركزية كالتالي:

أ. النزعة الفردانية (Individualism): والتي ترى أن الهوية ينبغي النظر إليها باعتبارها شأنًا شخصيًّا متعلِّقًا بخيارات الإنسان بنفسه بعيدًا عن الخضوع والالتزام بهُوية المجتمع العام؛ إذ تعتبر أن الإنسان حرٌّ في أن يختار هويته الدينية واللغوية والاجتماعية، وهذا الإطار يُركز على دارسة الهوية في الإطار الفردي، ويرصد ويتابع تطورات نمو هوية الأفراد داخل المجتمع الكبير.

ب. النزعة الاختزالية (Reductionism): والتي تركز على جانب واحد في الهوية وتعطيه الوزن الأكبر، وتغفل عن دور المكونات الأخرى؛ فمثلًا البعض يختزل الهوية التركية في الدين فقط؛ إذ نجد أن هناك من يعتقد أن الإسلام وحده هو الذى يُشكل الهوية التركية بعيدًا عن أي تأثير تاريخي أو جغرافي أو سياسي! ويرى هذا الفريق أن هناك تتطابقًا تامًّا بين الانتماء للهوية التركية والانتماء للإسلام، لدرجة أنهم يرون كل مواطن تركي لا بد أن يكون مسلمًا فقط، ولا يتبع أي دين آخر!

---

(٥) أمارتيا صن، الهوية والعنف، ترجمة سحر توفيق، عالم المعرفة، عدد يونيو ٢٠٠٨

(٦) وليد دروزي، الصراع العرقي والديني في البلقان، الأردن، ٢٠١٧

ج. النزعة الإجبارية ترى أن مساحة الاختيار والانتقاء أمام الأفراد والمجتمعات في اختيار هويتها غير متاحة؛ فالشخص عند هذه المدرسة يولد وهويته اللغوية والدينية والعرقية والتاريخية معه، فالطفل المولود في أسرة مسلمة غالبًا يصبح مسلمًا، وهكذا الطفل المسيحي واليهودي، وكذلك في نظر هذه المدرسة أن اكتساب اللغة والتقاليد والتراث تتم بشكل لا إرادي للمجتمعات والأفراد [٧].

رابعًا: الحبر السري للهوية

لا بد من فهم الطبيعة التكوينية الذاتية للهوية الجامعة، فهناك وجهتا نظر شائعتان لطبيعة الهوية هما:

أ. الأولى تَعُدُّها ثابتة.

ب. الثانية تراها متغيرة.

النظرة الأولى ترى أن الهوية في المجتمع محددةً وثابتة، وبالتالي يجب الحفاظ عليه كما هي بدون الاقتراب منها، مناقشةً أو بحثًا أو تناولًا، سواء على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الديني، وهذا الفريق يعتقد بمفهوم «ثبات الهوية»؛ ولذلك يعتبر أن مطالبة أي مكون اجتماعي أو ثقافي أو ديني في المجتمع بمناقشة قضايا الهوية نوعًا من التجاوز وعبثًا بهوية الوطن وتهديدًا لسلامته الاجتماعية! وعادةً يشعل أنصار هذا الفريق معارك دائمة في المجتمع.

الفريق الثاني يؤمن بفكرة عدم ثبات الهوية، ويعتبر عملية بنائها مسارًا مفتوحا يتشكل عبر الزمن، ويتطور في الحاضر، وينمو في المستقبل وفق الفرص والتحديات التي يفرضها؛ فهناك مجتمعات تعتز بهويتها اللغوية وتجعلها أهم مكونات هويتها، وأحيانا تقدمها على الهوية الدينية، عندما تجد أن لغتها مهددة ومُهملة، مثل الأقلية النوبية في جنوب مصر وسعيها لإحياء اللغة النوبية نتيجة عدم تقدير المجتمع والدولة للغتهم، وهذا يعنى بأن عملية بناء الهوية هي سيرورة متغيرة وغير ثابتة وخاضعة للمتغيرات.

وأنا أعتقد أن الفكرة التي تؤمن بأن بناء الهوية الجامعة مسار متحرك ومفتوح وقابل للتطوير هو أفضل المسالك للتعاطي مع مستجدات وتحديات الهوية وأقل الخيارات

(٧) مرجع سابق، الكوخي

كلفةً، وأخفها ضررا على استقرار ونهضة المجتمعات[٨].

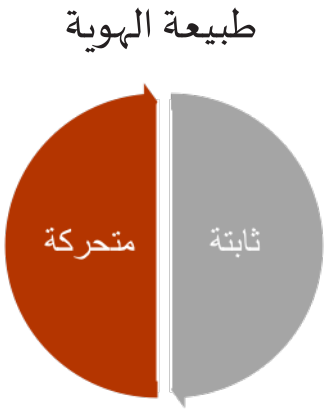

خامسًا: تراكم الهويات

الهوية مسار ممتد عبر التاريخ والدين والثقافة والفن يتشكل بها وعليها، وعندما يكون مجتمع ما متنوعًا مذهبيًّا وعرقيًّا ولغويًّا، إلخ - سنجد بصمات ذلك التنوع في قسمات وجه الهوية، خاصة إذا كان هذا المجتمع ضاربا بجذوره في التاريخ والجغرافيا، فتنشأ عن هذه الحالة ما يعرف بتراكم الهويات؛ فالمجتمع المصري – مثلا - مر بمراحل تاريخية متنوعة منذ فجر التاريخ، فهناك حقبة فرعونية طويلة، ثم فترة مسيحية امتدت خمسة قرون، ثم فتح إسلامي نتج عنه تغيير في الدين والثقافة والفنون؛ فالهوية المصرية الحالية هي نتاج تراكم هذه الهويات الثلاث السابقة، والتي ما زالت فاعلة في حياة المصريين إلى الآن، هذا المفهوم (تراكم الهوية) إذا ترسخ في وجدان النخبة المثقفة والمهتمين بمستقبل المجتمع سيقلل التوتر والاحتقان عند فتح ملف الهوية، فكل المكونات الثقافية والاجتماعية التي راكمت ثقافة وفنًّا وجهدًا ونضالًا في بناء الوطن تكون حاضرة وجهدها مُقدر ومرحب به من الجميع[٩].

سادسًا: مسبحة الهوية

لا بدَّ للنخبة المُثقفة أن تكتشف الخيط الناظم للهوية الوطنية الجامعة عند تناولنا لقضاياها؛ فكل هوية فرعية في المجتمع تُمثل حبة في مسبحة الهوية الوطنية، التي تتكون من حبات عِقْد متراصَّة، لكل حبة خصوصيتها التي تتميز بها عن غيرها من الحبات من حيث النشأة والتكوين وربما المظهر؛ فالمجتمع السوري مثلًا به المكون المسيحي والمسلم

(٨) أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهله بيضون، الفارابي بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١١.

(٩) د. محمد مختار الشنقيطي. تراكم الهويات وتزاحمها في الفضاء العربي، https://www.youtube.com/watch?v=VdNHmg5tIdk، شُوهد في ٢٠١٩/١٠/٣٠.

على مستوى الدين، وبه العرب والشركس على المستوى القومي، وبه اللغة الكردية واللغة العربية والآرامية كل هذه المكونات هي حبات انتظمت في عقد وطني، فشكلت هوية سوريا.

الهويات الفرعية في المجتمع لا تعارض بينها وبين الهوية الوطنية، طالما أنها ترتبط بخيط ناظم يجمع شتاتها، وهذا الخيط الناظم والجامع بين الهوية الفرعية والهوية الكلية للوطن ربما يكون التاريخ أو التحديات الخارجية، أو عقدًا اجتماعيًّا ضمنيًّا متعارفًا عليه، فالخيط الناظم للهوية المصرية – مثلًا - هو التاريخ المُشترك للمصريين عبر الحقب التاريخية، ثم هو اعتقاد جميع الهويات بمركزية الدولة المصرية.

وقد نجد الخيط الناظم لهوية المجتمع في المملكة المغربية هو الثلاثية المشهورة « الله، الوطن، الملك» وهكذا، فكل مجتمع يؤمن بأن هواياته الفرعية معتبرة ومُقدرة وتساهم في تشكل الهوية الكلية للمجتمع والوطن عبر خيط ناظم سيكون عبوره نحو الاستقرار والتنمية والمستقبل أسرع بكثير من المجتمعات التي لا يوجد لديها خيط نظام يجمع شتات هواياتها المتناثر[١٠].

2 نموذج المسبحة

سابعًا: لا تذرني فردًا

الهويات لا تموت ولا تفنى ولا تُستحدث من عدم، فالمجتمع الذي يُقصي هوية ما فرعية في لحظات ضعفها وانكسارها معتقدًا أنه بذلك قد عالج قضية الهوية الوطنية بوسيلة الجبر والهيمنة مخطئ؛ إذ الهويات لا تموت ولا تفنى، بل ربما تنزوي في فترة ما، ولكنها تعود للظهور مرة أخرى مُطالبة بحقوقها المهضومة عبر المسار القانوني

(١٠) د. مصطفي المرابط، المغرب، محاضرة، بمجمع مولاي رشيد بوزنيقة، الدار البيضاء. ٨ يونيو ٢٠١٥

والدستوري، وعندما تُوصد الأبواب في وجهها عادة ما تلجأ للمقاومة الخشنة، والتي تقود إلى الحروب الأهلية.

النموذج السيرلانكي:

دولة سيريلانكا منذ عام ١٩٨٣حتى نهاية عام ٢٠٠٩ كانت مسرحًا لحرب أهلية مُستعرة امتدَّت قرابة ٣٠ عامًا بين مقاتلي نمور التاميل والحكومة المركزية بلغ عدد ضحاياها قرابة (٧٠ ألف قتيل، ٩٠٠ ألف لاجئ، ١٠٠ ألف نازح)، وتحطمت في أثنائها حركة السياحة السيريلانكية، وتوقفت عجلة الاقتصاد، وتقطعت أوصال الدولة جراء توقف حركة القطارات بين جنوب البلاد وشمالها نتيجة أعمال القتال[١١].
والسبب الرئيس في هذه الحرب الأهلية السيرلانكية هو أن الدولة انحازت لصالح الهوية البوذية، وتجاهلت الهوية الهندوسية، إذ أقرّالدستور السيريلانكي الجديد بعد الاستقلال أن مهام الدولة السيرلانكية تعزز مكانة الدين البوذي في الدولة، واعتبرت سيريلانكا حامية له، وعندها شعرت الأقلية التاميلية الهندوسية بالإقصاء والتهميش بدأت بوادر الانقسام الأهلي، كما أن استعلاء الأغلبية السنهالية على باقي المكونات الاجتماعية الوطنية زاد من شدة التوتر الأهلي بين مكونات المجتمع السيريلانكي؛ فبعد وصول حزب الحرية السيريلانكي للحكم، وهو حزب مدعوم من طرف النخبة البوذية، تم إقرار السنهالية لغة رسمية وحيدة، عبر قانون السنهالية فقط (Sinhala Only Act)، ونتج عن ذلك مغادرة آلاف الموظفين التاميليين لوظائفهم، بسبب عدم قدرتهم على الاندماج في سياق لغوي سنهالي لا يتقنونه[١٢].

فعندما يسود الاستعلاء النفسي والثقافي بين الهويات الفرعية في المجتمع ويمتد إلى مجالات الحياة اليومية يكون هذا المجتمع مهددًا بانقسامات كبيرة على مستوى الهوية تعرقل عجلة التنمية والبناء والعبور نحو المستقبل؛ فالاستعلاء يقود نحو الاستدعاء التاريخي أو الديني بأحقية هيمنة هوية ما على الأخرى عبر تأويل بعض النصوص المُقدسة أو بعض الوقائع التاريخية المحددة بما يدعم انتصار هوية فرعية على غيرها من الهويات، ثم يأتي بعد ذلك العداء الميداني الإجرائي، والذى يأتي كمحصلة

(١١) Herring, R. J. (2001). Making ethnic conflict: the civil war in Sri Lanka. Carrots, Sticks, and Ethnic Conflict: Rethinking Development Assistance, 140-171.

(١٢) د أحمد زايد. قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات. عالم المعرفة. الكويت عدد٣٢٦، ابريل ٢٠٠٦

للاستعلاء والاستدعاء[١٣]، كما يوضح ذلك النموذج التالي:

في الختام أعتقد أننا لو أخذنا بالمحاور السبع السابقة، عند تناولنا قضايا بناء الهوية الجامعة للمجتمعات والشعوب نكون قد قطعنا شوطًا جيدًا في تنجب الصراعات التي تنشأ عند التعاطي مع ملف الهوية، وخاصة في المجتمعات العربية والمسلمة التي لم تحسم بعد طبيعة وفلسفة ومعالم وقسمات هوياتها الفرعية والجامعة.

(١٣) قاسم عبده قاسم. إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي ٧٨، الطبعة الأولى، الكويت. أكتوبر ٢٠٠٩